الحدائق

في المطالب العالية الفلسفية العويصة

لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد
البطليوسي الأندلسي
٤٤٤ - ٥٢١ هـ

قدم له الأستاذ الدكتور
عبد الكريم اليافي

اعتنى به
الدكتور محمد رضوان الداية

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ٧٧٦
الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - برقياً: فكر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحدائق

في المطالب العالية الفلسفية العويصة

بِسْمِ اللهِ الرحمن الرَّحيم

الكلمة الأُولى

يُعَدّ ابنُ السِّيْدِ البَطْلَيُوسِيّ في رؤوس عُلَماء الأَندلس وأدبائها في القرنين الخامس ، والسَّادس ، فقد عاش من سنة ٤٤٤ هـ إلى أن وافاه الأَجَلُ سنة ٥٢١ هـ . وتجاوزت شُهْرَتُه الأَندلس ، وبلغت المغربَ والمشرق . وتداولَ النّاسُ كتُبَه ورسائِلَهُ ، ورُزِقَت قَبُولاً من العُلَماء والمتعلّمين . وكان ابنُ السِّيد أُستاذاً فائق الأُستاذيّة ومعلّماً بارعاً ، وكاتباً طاع له القَلَمُ في الموضوعات التي عالجها على اختلاف وجهاتها وعلى كثرة تَنَوُّعِها .

ومؤلّفات ابن السِّيْد موزّعة على كثير من أبواب الثقافة العَربيّة : في النّحو واللُّغة والنَّقد ، وفي الأُصول ، والكلامِ ، والفلسفة وعلوم الأوائل ؛ ذلكَ أنّه تَلقّى عن شيوخ الأَنْدَلُسِ الكبار العلوم النقلية ، والعلوم العقليّة ثم تفنَّن صُعُداً في الإبداعِ والتَّوْليد حتى بلغ درجة الأُساتذة الكبار ، وصار مع طبقتِه من الأدباء والعلماء حلقة جديدة من حلقات العلم والثقافة في ديار الأَندلس ذات العزّ الباهر .

وكان ابنُ السِّيد ـ إلى جوانِبهِ العلميّة الغَزيرة ـ مُشاركاً في الشِّعر ، متفنّناً في الكتابة ؛ وهو ـ وإن لم يكن معدوداً في شعراء الطبقة الأُولى ـ معدود في شعرائهم وكُتّابهم ؛ ولكنّ صُورتَهُ الحقيقية مثبتة في جوانب الثَّقافة والعلم فإنه بلغ القِمّة .

وكنتُ ـ قبل نشرِ كتابِ الحَدائِق هذا الّذي بين يَدي القارِئِ الكريم ـ

نشرتُ لـه كتـاب : **الإنْصَاف في التنبيه على المعـاني والأسبـاب التي أوجبت الاختلاف بين المُسلمين في آرائِهم**(١) ؛ واعتنيتُ ببعض شعره ـ الذي لم يُنشر ؛ ثم ضممت إليه شعره المتفرّق ، في المظان المختلفة ، وشَرحْتُهُ ، عَسى أن أصْـدِرَهُ محققـاً مشروحاً ؛ إسهاماً في بعث تراث ابن السِّيْد البَطَلْيَوْسي ووضْعاً لأشعار الأنـدلسيين بين أيدي الدّارسين .

وكتابُ الحدائق الذي ننشره اليوم معروفٌ مجهول .
هو معروف لأنّه نُشِرَ مرّتين بعناية عالِمَيْن كبيرين(٢) ؛

ومَجْهولٌ ـ أو كالمجهول ـ لأنّه مفقود من التداول منذ زمان بعيـد من جهـة ، ولأنّه لم ينتشر على الوجه الذي يستحقّه ، نَنْشُرهُ لأهمِّيّتهِ ، وفائدته ، ومَوْقعـه من البحث الفلسفي في التراث الأندلسي من جهة ، والبحث الفلسفي في تاريخ الفكر العربي عامّة .

وكنتُ مُنذ اعْتَنَيْتُ بِشَخصيّة ابن السِّيْـد وآثـاره قَرأتُ كتـابَ الحـدائق ، في طبعتَيْه ، وعلّقت عليهما تعليقاتٍ هنا وهناك ممّا يَدْخُل في طبيعـةِ النّص وقراءَتـهِ حتى حصلتُ على نسخةٍ مخطـوطـةٍ حَسنـة من الكتــاب ، فرجعت إلى النُّسختين المَطْبُوعتين ، وجَعَلْتُهما نُسَخاً ثانية . وأعَدْتُ تحقيق النصّ على الوجـه الـذي يراه القارئ الكريم .

ولم أتـدخّل في حواشي النّصّ بـأكثر من إثبـات فرُوق النُّسخ ، إلاّ في مواضعَ يَسيرة جـداً لاتُحْتَسب ، فـالكتــابُ مُيَسّر للقُرّاء تيسيراً ، ومقرّبٌ تقريبـــا . واستَغْنَيْتُ عن ذلك بمقدّمةٍ كتَبها أُستاذي وشيخُ جيلي وأجيـالٍ سَبقتني ولَحِقَتْني : **الدكتور عبد الكريم اليافي** ؛ مُتكرّماً متفضّلاً ، أكرمه الله وأعزّه ، وأدامه ؛

---

(١) صدرت منه الطبعة الثالثة في دار الفكر بدمشق : ١٩٨٧

(٢) وسنصف الطبعتين في مقدمة التحقيق ، مع صفة المخطوطة المعتمدة .

وأتبعتُها بمقدّمةٍ لطيفةٍ كانَ قدَّم بها الشّيخُ محمّد زاهد الكَوْثري للطّبعة القَاهرية من : الحدائق . والشيخ الكوثري (١٢٩٦ هـ - ١٣٧١ هـ ، ١٨٧٩ م - ١٩٥٢ م) فقيه من عُلَماء جامع الفاتح بالآستانة ؛ لجأ إلى مصر من اضطهاد الكماليّين (١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م) واشتغل موظفاً في دار المحفوظات لترجمة مافيها من الوثائق التركية إلى العربية ، وكان يُتقن العربية والتركية والفارسية والجركسيّة . وألّف في موضوعات شتى من الفقه والتراجم والرجال والحديث ، وكانت له مشاركات في الأدب[1] .

ونقلت ما كتبَهُ - مختصراً - أُستاذي **الدكتور عمر فرّوخ** رحمه الله وأوسع له في الجِنَان ؛ فإنه مرَّ بكتاب الحدائق ، وبابن السِّيْد البَطَلْيَوسي في كتابه : **تاريخ الفكر العربي** ؛ (على الصفحتين ٦٠٥ - ٦٠٦) ؛ وكنت قد تلقّيت مع الجِيل الّذي تتلمذ له في دمشق محاضرات مهمّة في تاريخ الأندلس السّياسي والحَضاري ، وكان - رحمه اللهُ وأجْزَل مَثُوبته - قد عرَّفنا بأشهر فلاسفة الإسلام في الأَنْدلس قبل أنْ يَظهر كِتابُه الذي نقلتُ عنه بِعَددٍ من السِّنين .

وها هُوذا كتابُ الحدائق نقدّمه إلى المشتغلين بقضايا الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفكر العربيّ ، كما نقدّمه إلى محبّي التّراث الأَندلسي خاصة والتراث العربي عامّة ؛

وأدعو الله تعالى أن ينفعَ به ، وأن يهدينا سواء السبيل .

دوما - دمشق : جمادى الثانية ١٤٠٨ هـ
شباط ١٩٨٨ م

د . محمد رضوان الداية

---

(١) ترجمة الزركلي للشّيخ الكوثري في الأعلام ٦ : ١٢٩

تقديم الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي

الدّكتور مُحمّد رضوان الدّاية ، أُستاذ الأدب الأندلسي ونَقدِه بكليّة الآداب في جامِعَة دمشق . وهو من أعلام الأساتذة والمُحقّقين في سورية ، اتّجه خاصّة - فوقَ تدريسِه ونشاطه اللُّغويّ والأدبيّ الواسع - إلى تحقيق كُتب التّراث الأندلسي ، فأصْدَر عدداً منها مرموقاً في اللّغة والأدب والتّاريخ . وها هوذا يُحقّق كتاب « الحدائق » لأبي محمّد عبد الله بن السّيد البطليوسي .

وهو كتاب ذو شأن في التراث الفلسفيّ العربيّ .

بحث المؤلّف فيه قضايا فلسفيّة وميتافيزيائيّة وكلاميّة مُهمّة ، تنَاقلها الفلاسفةُ والصُّوفيّةُ والحكَماءُ تناقُلاً واسعاً ، وعَرَضُوها في أساليبَ مُختلفة تَسْتغلِقُ تارةً وتَلتوي تارةً أُخرى .

وقد استوعَب العَلاّمة ابنُ السّيد البطليوسيّ تلكَ القَضايا ، فعمَد إلى شَرْحِهَا شَرحاً بَسيطاً واضحاً لا لبسَ فيه ، وبدِقّةٍ كافية ، حتّى إذا قرأها طالبُ الحِكمةِ والفَلسفةِ استطاعَ أن يَسلكَ كُتبَ الصّوفيّة المتأخّرة المعقّدة والكتبُ الفلسفيّة المشتبكة وعندَهُ زادٌ من المعرفةِ يُخَوّلهُ أن يتفهّم تلكَ القَضايا ويُتابعَ مُؤلّفيها متابعةً مُفيدة .

أهمُّ تلك القَضايا : مراتِبُ الموجُودات عن السّبب الأوّل ، ومَبْدَؤُها ومَرْجعُها ، ومُقَايَسةُ مبلغِ ذاتِ الإنسانِ بعدَ مَماته بدرجةِ عِلمه في حَياته ، وتشبيهُ تلكَ المَراتب بمراتبِ الأعدادِ الصّادِرَةِ عن الوَاحدْ الّذي هُوَ عِندَهُمْ ليسَ بِعَدَدٍ ؛ ومَسألةُ صِفات الله : هل يُقْتَصرُ فيها على وَجْهِ السَّلْب أم يُعتَمدُ التّشبيه ، وكذلك قضيّةُ معرفة الله تَعالى نَفسه ، ومَسْألةِ إحاطَةِ عِلمه بالكُلّيّات أو

بالكُلّيات والْجزئيّات ، وبقاءُ النَّفْسِ النّاطِقَة حَيَّةً بعدَ الموت ؛ وكُلُّها شؤونٌ ذَواتُ بالٍ في تاريخِ عِلم الكلام والمِيتافيزياء والفَلْسَفة .

بَيْدَ أنّ العلماءَ لا يَتورَّعُون عن تَجشُّمِ العَقبات في البَحْثِ عن حَلِّ القَضايا الْمُعَقَّدة وجَلائِها ما اسْتَطاعوا إلى ذلك سَبيلاً . وهُم في بُحوثِهم هذه يَرْغَبُون في بَثِّها وشَرْحِها لِطُلّابِهم ومُريديهم ، ولكنَّهُم يَلْزَمُون الحذَر دَفْعاً للاتّهامِ ، وتَحامياً للأقاويل ، وتَجَنُّباً لاحْتِمال النَّبْذِ والتَّضْييق .

وعِنْدَنا أنَّ ابنَ السِّيد البَطَلْيَوْسِيّ قد أَقْبلَ في كتابه « الحَدائق في الْمَطالِب العاليَةِ الفَلْسَفيّة العَوِيْصَة » على عَرْض ما اسْتَوْعَبه من تلك الْمَطالب عَرْضاً واضحاً سَلِيماً ، مع الحذَرِ الشّديد من اتّهامه بالْمُروق ؛ فهو يُدافِعُ عن حَصيلةِ الفَلْسَفةِ اليُونانيّةِ التي انْسابَت إلى آراء الْمُفكّرين الْمُسْلمين ، ويُبَرّئ أرسْطو وأَفلاطُون من القَوْل بأَزَليَّة العالَم وقِدَمه ، ويتلَطَّفُ في عَرْض آرائهما كما وصَلَتْ إلَيْه ، ويُحاوِلُ أن يَكْشِفَ عمّا يَراهُ من الحَقائق ، على أن لا يحيد عن حُدود شَرْعِ الله ما اسْتَطاع .

ولكنّ هذه الحقائقَ التي عَرضها ـ مع فائِدَتها في جَلاء القَضايا الفلسفيّة ـ ربّما لا تُوافِقُ علماءَ الكلامِ الأشاعِرة والماتُريديّة ، الذين يَعْتَمِدُونَ فِكْرةَ الْخَلْقِ بَدلاً من الفَيْض ، ولا يَرْغَبُون في تشبيهِ الواحِدِ العَدديّ بالواحِدِ الأحد الْمِيتافيزيائيّ ، إلى غَيْرِ ذلك من الأُمور الّتي تَحْتاجُ إلى الإيضاح في عَقيدة أَهْلِ السُّنّة والْجَماعة .

وعِنْدَنا انّ الاختلافَ إنْ وقع فمَرَدُّهُ إلى اختِلافِ وجهاتِ النّظر ، وإلاّ فإنّ التأمُّلَ الْمِيتافيزيائيّ والدِّينيّ إنّما يُعبّرانِ عن الْحَقيقةِ الواحِدَة . وفي بعضِ الأحيانِ يَغْدُو التَّعبيرُ اللَّفظيُّ والرِّياضيُّ تَقريباً للفِكْرَةِ من الأفْهام .

هذا وقد دَخَلَتْ تيّاراتُ الفَلْسَفةِ اليُونانيّة والْمَشْرقيّة إلى الأَنْدَلُس بدخولِ الكُتُبِ المؤلّفةِ فيها ، كَكُتُبِ الفارابيّ وابنِ سينا ورسائلِ إخوانِ الصَّفا ، وأمْثالِها .

وفي أواخرِ دَولـة الْمرابطينَ نفقتْ كتبُ المذهَب المـالكيِّ وفروعِـهِ ، وعُمِـلَ بمُقْتَضَاهـا ، ونُبِـذَ مـا سِوَاهـا ، كما يُحدِّثُنا عبـد الواحـد الْمَرّاكِشيُّ في كتـاب : « الْمُعجب في أخبارِ المغرب » ، ووصل الأمْرُ في زَمَنِ أمير المؤمنين ملك المرابطين أبي الحسن علِيّ بن يُوسف بنِ تـاشفين التقيّ الصّـالح الْمُتبتِّـل الّـذي عـاصَر البَطَلْيَوسِيّ « إلى تقبيح علْمِ الكَلام ، وكرَاهةِ السَّلَف له ، وهَجْرِهم مَنْ ظهَرَ عَليه شيءٌ منه ، وأنَّه بِدْعَةٌ في الدِّينِ ، ورُبَّما أدّى أكثرُه إلى اختلالِ العَقائـدِ ، في أشبـاهٍ لهذه الأقوال ، حتّى استَحْكَم في نفسِـه (نَفسِ أميرِ الْمُؤمنين) بُغْضَ عِلْمِ الكَـلام وأهْلِهِ ؛ فكانَ يُكتبُ عنه في كلّ وقتٍ إلى البلاد ، بـالتّشـديـد في نبـذِ الْخَوْضِ في شيءٍ منه وتوعُّدِ مَنْ وُجِدَ عنـده شيءٌ من كُتُبـه » . حتّى إنّـه أمرَ بـإحراقِ كتُب أبي حامِـد الغَزالي لَمّـا دَخلت الْمَغْرِب « وتقـدَّم بـالوعيـدِ الشّـديـدِ : مِن سفـكِ الدَّم ، واستئصال المال ، إلى مَنْ وُجِدَ عنده شيءٌ منها » .

وإذا كانت الأُمور على هذهِ الحال في شأنِ عِلم الكلام ـ وهو من بعْضِ الوجوه يُعتَبَرُ من العُلـوم الشّرعيةِ والنّقْليّـة (كما يَعُـدّه ابنُ خَلـدون إذ كانَ مُتفرّعـاً عن الشّريعة) ـ وفي شأنِ كُتبِ الغَزالي الذي هـاجَم هُوَ الفَلْسَفـةَ في كتـابـهِ « تهـافتُ الفلاسفة » ، فما بالُنـا بـالفَلْسَفةِ نَفْسِهـا وَقضَـايـاهـا الْمُستَفَـادَةِ من عُلوم اليُونـان وآرائِهم الّتي قد تبعدُ عن صَفاء الدِّين وبَساطَتِه ؟

وأيّاً كان الأمرُ ، فإنَّ الاعتبـاراتِ الّتي وردت في كِتَـاب « الْحَـدائق » ـ على صغرِ حَجْمِـه ـ من أهمّ القضـايـا الفِكْرِيّـة الّتي تَهمّ البـاحِثَ في الْميتـافيزِيـاء وفي التّراثِ الفَلْسَفيِّ العَرَبيِّ والإنسانيِّ .

هذا وإن نَشْر كتابِ « الْحَدائق » مُجدّداً ومُحقّقاً يَقْتَضِي الثّناء والتقريـظ : لأنّـه تيسيرٌ لفهم تلـك الشؤون الفلسفيّـة في التّراثِ الإسلاميِّ الْمُؤثّل ، وإيضـاحٌ لعلاقاتِ بعضِها ببَعْض .

مقدمة الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله

يَتَصَوَّرُ الفلاسِفَـةُ الإشراقِيُّونَ والصّوفيّـةُ دائرةً وهميّـةً في ترتيبِ المـوجـوداتِ الصّادِرَةِ عن الْمُبْدِعِ الحكيم جَلّ جلاله ، ويَعتبرونَ أَنّها تَبتدِئُ من نُقطةٍ مَرْجِعُها إليها ، ويتلونَ في ذلك قولَـه تعـالى : ﴿ كَمَـا بَـدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ، ويُشيرُ إليهـا أغْلَبُ مَن كتبَ في « الْمَبْدَأ والمَعَاد » من أمثال عزيز النّسفي الباطِني ، وابنِ سِينا الحكيم المشهـور ، والصَّـدْرِ الشّيرازي ، والصَّـدر الشّرواني ، وصـاحب « مَعرفتنـامـة » ، والبُرهـان الكـوراني في « الْمَسلـك الْمُختـار في أوّل صـادرٍ من الواجبِ بالاختيار » ، وكذلك الكتبُ الْمُؤلّفة في مَراتِب الوجود .

وبين هؤلاء مَن يَنْحو ناحِية التّناسُخِ في البدء والعَوْدِ ، ويَضِلُّ عن الجادّة ، ويغْتَاصُ على كثيرٍ من الباحثين وَجْهُ الصّوابِ في تلكَ الْمَطالب ، فيحمل بَعْضُهم الكلامَ عَلى غيرِ مَحْمَلِه تذرُّعاً بالإجمالِ القائم فيه إلى تأويلٍ باطل .

ومن ادّعـاءاتهم بلـوغُ ذاتِ الإنسـانِ بعـد الْمَماتِ إلى حيثُ يبلغُ عِلْمُـه ، ويتصوّرون في ذلك أيضاً دائرةً وَهْمِيَّة ، كما يتصوَّرُونَ دائرةً كذلك في الأعـدادِ ، ويقولونَ : إنّ العَقْلَ الْجُزئيَّ قـد يتصوّرُ بصورةِ العَقْلِ الكُلّي ، وتلـك مبـاحثُ توجِبُ التمهيدَ لها بإيضاحِ مَغْزاهُم في العُقول العَشْرة وما إليها .

ومن الآراء المعزوَّة إلَيْهم : دعوى أنّ البـارئَ جلَّ شـأنُـه لا يصحُّ أنْ يُـوصَف بصفـاتٍ إلاّ على طريق السَّلْب ، وأنّـه تَعـالى لا يَعْلَمُ إلاّ نفسـه ـ سبحـان الله عن إفـكِ الأفّـاكين ـ وقـد سُئل المؤلِّفُ عن تلـك الْمَشـاكِـل وعن البُرهـانِ على بقـاء النّفْسِ الناطِقَةِ بعدَ الموت .

وتلك ـ كما يقولُ المؤلّفُ ـ مطالبُ ضيّقةُ المَسالك ، وكثيراً ماتُؤدّي بسالكها إلى المَهالك ، وقد أجابَ المؤلّف في هذا الكتاب عن تلكَ الأسئلةِ العَويْصَة ، إجابةَ خِرّيت[1] ، خبيرٍ بتلكَ المضائق ، بَصيرٍ بوجوه الكشفِ عن الحقائقِ ، وسَعى في ألاّ يحيدَ في بيانِه قِيْدَ شعرةٍ عن حُدودِ شَرْعِ اللهِ بقَدْرِ مااسْتَطاع ، ولمباحثِه صلةٌ وثيقةٌ بمباحث « اللُّمْعَة » وأجادَ في بيانِ آراء الفَلاسِفَةِ في تلكَ المَطالِب .

وقد صَدق الفتحُ بن خاقان في « قلائِد العقيان ومحاسن الأعيان » حيث قال في ترجمة المؤلّف : « وله تَحققٌ في العلومِ الحديثةِ والقَديمة ، وتصرُّفٌ في طُرقها القَويمة ، ماخرجَ بمعرفَتِها عن مضمارِ شَرْع ، ولا نَكَّبَ[2] عَنْ أصلٍ للسُّنَّةِ ولا فَرْع ، وتآليفه صُنوف ، وهي اليومَ في الآذانِ شُنوف » . كما صَدق ابنَ خَلّكان وابن فَرْحُون وغيرُهما من المُتَرْجِمين له حيث قالوا : « كان حَسن التّعليمِ ، جَيِّدَ التَّفْهيم ، ثِقَةً ضابطاً » .

فها هو كتابُه هذا ، تجدُه إليه المُنْتَهى في حُسن البيان وجودةِ التّفهيم لتلك المَسائل العَويصة ، فيجعلُها سَهْلة التَّفَهُّم لِكُلّ مَن ألقى إلى كلامه سَمْعَهُ ووَجّه إليه بَصيرته .

وكتابه « التّنبيه على الأسباب الموجبة للخلاف بين الأمّة » لم يُؤلّف مثلُه في موضُوعه على صِغَرِه ؛ وشَرْحُه على سَقْطِ الزَّند يفضّلُه ابنُ خَلّكان على شرح المعرّيّ نفسِه عليه ، وكتابُه في المُثَلّثات العربية إليه المُنْتَهى في الإجادة عندهم ، وله شرحُ أدب الكاتب المشهور بالاقتضاب ، والحُلل في شرح أبيات الجمل ، وإصلاح الخلل الواقع في الجُمَل ، وشرحُ ديوان المُتَنبّي ، والمسائل المَنْثُورة ، وشرحُ المُوَطّأ ، وغيرُ ذلك .

---

(١) الخِرّيت (على وزن سِكّيت) : الدليلُ الحاذق .

(٢) نكّب عن الشيء : عدَل عنه .

ومن شُيوخِهِ أبو عليّ الغَسَّاني الحافظ ، كان عالماً باللغة والأدب مُتَبَحِّراً فيهما ، فقيهاً ، وكان لَهُ يدٌ في الفَلْسَفةِ والعُلوم القَديمة ، وله أشعارٌ رنّانة ذُكِرَتْ في قلائد العِقْيان ووفيات الأعيان نماذجُ منها كافية .

وُلِدَ في بَطَلْيَوْس بفتحتين فسكون سَنةَ ٤٤٤ هـ ، وتُوفّي ببلنسية في رجب سنة ٥٢١ هـ ، وكلتاهما من بلادِ الأندلس ، والسِّيْد بكسر السين وسكون الياء من أسماء الذئب في اللغة ، سُمّي به جَدُّه . سامَحه الله وأعلى منزلته في الْجَنّة .

ملاحظات الدكتور عمر فرّوخ على كتاب الْحَدائق

هذا كتاب فيه استِعراضٌ لعددٍ من وُجوه الفَلسفة القديمة : (الفَيْض والنَّفس وقواها) ووجوه الفلسفة في الإسلام : (في صِفات اللهِ والْخَلود) .

ويبدو أنَّ ابن السِّيْد يَقْبَلُ بالقَوْلِ بالفَيْض والعُقولِ الثَّواني ، ويذكرُ أنَّ ذلك كان مـذهب أرسطـاطـاليس وأفـلاطـون وسُقراط وغيرهم من مشـاهير الفـلاسفـة وزعمائهم القائلين بالتّوحيـد . وهو يرفضُ رأي الفلاسفـة الْمَجُوس (الـدّهريـة) ويعدّه كُفْراً بحتاً عند أرسطاطـاليس لأن ذلـك يوجب استحـالـة البـاري ، أي : إنكار وجود الله (راجع كتاب الحدائق ، ص : ٤٦) ويبدو أيضـاً أن البَطَلْيَوْسِيّ مُقتنعٌ بنظرية العَدد عند فيثـاغوراس وصلتها بـالفَيْض (الحـدائق ، ص : ٣٩) ولعلّـه عرف ذلـك من رسـائل إخوان الصَّفـا . وهـو يُنكر أن يكـون الله صـورةً لِلعَالَمِ أو أنه مجموع الوجود على مـاذكره ثـاليس وزينون الإيلي مثلاً (الحـدائق ، ص : ٨٥ ـ ٨٦) .

ثم هو ليس معتزليّاً ، وليس خَصْماً لهم ؛ ولكنّه أمْيَلُ إلى الأشعريّـة في جَعْلِـه صِفات اللهِ قديمةً ، وأنَّ الاستدلالَ عليها يكونُ بالشّرع ومِمّـا ذكره الله تعـالى عن نفسه .

وكذلك نجدُ لابن السِّيْـد البَطليوسيّ ميلاً إلى قول أهل الظـاهر (الحـدائق ، ص : ٤٨ وما بعدها) .

من كتابه : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص : ٦٠٥ ـ ٦٠٦

مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيق

مدينة بطليوس التي يُنسب ابن السِّيْد إلَيْها[1]

مؤلف هذا الكِتاب أبو محمد عبد الله بن السِّيد البَطَلْيَوْسِيّ نسبةً إلى مَدينةِ بَطَلْيَوْس إحدى مُدنِ الأندلس الكبرى ـ وهي اليوم عند الْحُدود الإسبانيّة البرتغاليّة ، وترسم باللغة الإسبانية Badajos وتنطق باداخوس . وهي مدينةٌ كبيرة ، على مدى الحكم العربي الإسلامي في الأندلس ، وتقع في مُنْحَنى وادي آنه (أو وادي يانة) عند ملتقى رافده : سو . وكانت محسوبة من إقليم ماردة .

وَبَطَلْيَوْس مدينة مُحْدَثَة (عربية) بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجيليقي أيام الأمير عبد الله (أحد أمراء دولة بني أميّة في القرن الثالث) .

---

(١) ترجمة ابن السِّيد البَطَلْيَوْسي في أزهار الرّياض ٣ : ١٠١ (وفيه ترجمة مطولة نقلها عن كتيِّب خاص بابن السيد لابن خاقان) وقلائد العقيان ١٩٣ ، والصلة ١ : ٢٩٢ ، وبغية الملتمس ٣٢٤ (التّرجمة : ٨٩٢ : وقال فيه : وكان ثقةً مأموناً على ماقيّد وروَى ونقّل وضبّط) والمغرب في حُلى المغرب ١ : ٣٨٥ ، والديباج الْمَذهب ١ : ٤٤١ ، ونفح الطيب ١ : ١٨٥ ، و ٦٤٣ ـ ٦٤٩ ، ووفيات الأعيان ٣ : ٩٦ (ووصفه ابن خلّكان بالنحوي وقال فيه : كان عالماً بالآداب واللغات متبحّراً فيهما ، مُقَدّماً في معرفتهما وإتقانهما ؛ وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه ويقتبسون منه ، وكان حسن التعليم جيّد التفهيم ثقةً ضابطاً . ألّف كتباً نافعةً ممتعة ... وبالْجُملة فكلّ شيءٍ يتكلّم فيه فهو في غاية الجودة) . ومرآة الجنان ٣ : ٣٢٨ ، والبداية والنهاية ١٢ : ١٩٨ ، وغاية النهاية ١ : ٤٤٩ ، وبغية الوعاة ٢ : ٥٥ ، وشذرات الذهب ٤ : ٦٤ ، وشجرة النور الزكية ١ : ١٣٠ ، وكشف الظنون ٤٨ :٦٠٢ ، وهدية العارفين ١ : ٤٥٤ ، وروضات الْجَنّات ٤٥٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٩ : ٥٣٢ (ووصفه بصاحب التصانيف) .

عصر الطوائف على أيامه

وفي فترة دول الطّوائف (نحو سنة ٤٠٠ هـ إلى نحو سنة ٤٨٤ هـ) قامت في بطليوس ومنطقتها دويلة لبني الأَفْطَس . فقد كانت في مُدّة الفتنة تحت ولاية سابور الفارسي أحد أعوان فائق الخادم مولى الحكم المُستنصر يساعده في إدارة المنطقة وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة . ولما توفّي سابور سنة ٤١٣ هـ ـ وترك ولدين ـ استبد بالأمر ابن الأَفْطس : وهو من قبيلة مكناسة البربرية (على أنّهم نسبوا أنفسهم إلى قبيلة تُجيب العربية) وتلقب بالمنصور وكانت وفاته سنة ٤٣٧ هـ فخلفه ابنه محمد ، وتلقب بالمظفّر (وكان عالماً فارساً شجاعاً) .

وفي مدة المظفّر استولى فرناندو بن سانشو ملك قشتالة وليون على عدد من المُدن المهمة من الأراضي التي تحت نظر بني الأفطس مثل مدينة مليقة (لاميجو) وبازو ـ وهما في شمال البرتغال ـ واستولى على مدينة قُلُمريّة سنة ٤٥٦ هـ وارتكب الفظائع في حق أهلها .

وتوفي المظفر سنة ٤٦١ هـ وخلفه ابنه يحي الملقب بالمَنْصور ، ولكنه توفي فجأة سنة ٤٦٤ هـ ، وحكم أخوه عمر ـ الذي كان ينافسه ـ وتلقّب بالمتوكل ووزر له ابن عبدون الأديب الشاعر المشهور .

وفي هذه المدّة كان يحكم طليطلة بنو ذي النُّون الذين أضاعُوا مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ؛ استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة . واشتهر في بني ذي النون المأمون (توفي ٤٦٧ هـ) وخلفه حفيده يحي القادر ، وكان ضعيفاً متهاوناً . وفي أيّامه سقطت طليطلة في يد ألفونسو السّادس ـ حليفه القديم ! ـ

وكان في قرطبة بنو جهور استمروا من سقوط دولة بني أمية إلى أن داهمهم المعتمد ابن عَبّاد فضمَّ مملكتهم إلى مملكته الواسعة سنة (٤٢٢ هـ ـ ٤٦٣ هـ) .

وكانت إشبيلية عاصمة لدولة بني عبّاد أكبر دويلات الأندلس في مدّة الطوائف ، وكان أمراؤها يسعون إلى ضم الأندلس تحت رايتهم بوسائل مختلفة أهمها القوّة والحرب من جهة والمكايد من جهة أُخرى .

وكانت مدينة (السَّهْلَة)[1] ومنطقتها في يد بني رزين : حكمها هذيل بن عبد الملك (سنة ٤٠٣ ـ ٤٣٦ هـ) ثم ابنه أبو مروان عبد الملك (سنة ٤٣٦ ـ ٤٩٦ هـ) ثم يحيي بن عبد الملك وأنهى المرابطون دولتهم سنة ٤٩٧ هـ .

وكانت سَرَقُسْطَة في يد بني هُود الذين واجهوا مملكة أراجون وأمراء برشلونة .

وغرناطة في يد بني زيري (من البربر) وكان أكثر دويلات جنوبي الأندلس إمارات تحت نظرهم .

أمّا شرق الأندلس فكان تحت نظر الفتيان الصَّقالبة وخلفائهم ؛ ثم آلت مدينة المرية إلى بني صُمادح التُّجيبيّين وتولى أمر المرية ومنطقتها أبو الأحوص معن بن صمادح وتلقّب بالمعتصم (سنة ٤٣٣ ـ ٤٨٤ هـ) . وضبط بنو طاهر مدينة مُرْسِيَة .

وحكم مجاهد العامري : دانية والجزائر الشرقية (الباليار) توفي سنة ٤٣٦ هـ ، وخلفه ابنه عليّ وتلقب بإقبال الدَّولة ، ثم استولى المقتدر بن هود صاحب سرقسطة على دانية سنة ٤٦٨ هـ ، وانتهت الدولة المجاهدية .

وحكم بلنسية في أول الفتنة مُبارك والمُظَفَّر من مَوالي العامريّين . ثم قدَّموا عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور العامريّ (حكم من سنة ٤١٣ ـ ٤٥٢ هـ) وخَلَفَهُ وَلَدَه عبد الملك (تلقّب بنظام الدولة ، وبالمظفر) ، ولكن المأمون بن ذي النون ضمّ بلنسية إليه سنة ٤٥٧ هـ وعهد بتدبيرها إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز الَّذي أعلن استقلاله في سنة ٤٦٧ هـ في ظَرْفٍ مُواتٍ . وأصهر سنة ٤٧٧ هـ إلى المؤتمن من بني هود

(١) ويقال فيها شنتمرية الشرق تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب : (وهي اليوم سانتا ماريّا) .

فزوج ابنته من ابنه المستعين بن المؤتمن . وتوفي أبو بكر سنة ٤٧٨ هـ وخلفه ابنه أبو عمرو عثمان بن أبي بكر . ولكن القادر بن ذي النون لم يلبث أن دخل بلنسية مؤيداً من الفونسو حليفه القشتالي ! على أنّ ابن جحّاف القاضي البلنسي تولى الأمر في المدينة سنة ٤٨٥ هـ وقتل القادر لخيانته البلاد وتآمره مع النصارى . واحتل السيّد القمبيطور (الكمبيادور) وهو مغامرٌ أفّاق قشتالي سفّاك للدّماء سنة ٤٧٨ هـ . واسترجع المرابطون المدينة وما احتلّه ذلك المغامر سنة ٤٩٥ هـ .

وكان المرابطون قد دخلوا الأندلس سنة ٤٧٩ هـ مُنْجِدين البلاد والعباد ، وكان نصر الزلاقة الشهير ضد قوات ألفونسو وتحالف الدول الشمالية والقوّات الأوربية التي أنجدتهم في الحرب الصليبية الطويلة التي التفتت إلى الغرب الإسلامي كما التفتت إلى الشرق الإسلامي أيضاً .

ابن السّيد وأُسرته وشيوخه وأحواله

مؤلّف الكتابِ هو أبو محمّد عبدُ الله بن محمّد بنِ السّيِّد البَطَلْيَوْسِيّ ، واشتهر بلقب النَّحوي . ونعرف من أُسرته أخاه أبا الحسن عليّ بن محمد ، وكان أسنّ من أبي محمّد ، ويعدّ أحد أساتذته ، ولعلّه كان معلمه الأوّل وراعيه ، وموجّهه ؛ وفي ترجمته أنه كان مُقدّماً في علم اللغة ، وحفظها ، والضبط لها « وأخذ عنه أخوه أبو محمد كثيراً من كتب الأدب وغيرها » . وكان أَبُو الْحَسن قد وقع في قبضة ابن عكاشة والي قلعة رباح وبقي في اعتقاله حتى توفي قريباً من سنة ٤٨٠ هـ .

ولد أبو محمد في مدينة بَطليوس سنة ٤٤٤ هـ[1] ؛ في هذه المدة القلقة من

(١) أصل أسرته من شِلْب في غَرب الأَنْدَلُس ؛ وأَبُوه هو الذي انتقل إلى بطليوس ، وليس له ذِكر في كتب التراجم أو في أخبار ابن السّيِّد ولده ؛ غير أن عنايته بأولاده ـ وعرفنا منهم اثنين ـ وتخريجهم في فنون العلم يدلّ على التفاتٍ منه إلى الثقافة واهتمام بها ، وتوجيه لأولاده إليها .
وكأنّ عدم امتداد جُذور أبي محمد بن السّيد في بطليوس هو الذي هوّن عليه الاغتراب عنها نهائياً ـ بالإضافة إلى عوامل أُخَر ـ

الناحية التاريخية والسّياسية والعسكريّة والاجتماعيّة . وقضى طفولته وفتوّته في هذه المدينة . وكانت بطليوس وناحيتها تحت نظر بني الأفطس كما ذكرت . وكان الحاكم وقتها المظفر محمد بن عبد الله بن الأفطس (حكم سنة ٤٣٧ ـ ٤٦١ هـ) وفي زمانه سقطت مدينة مليقة (لاميجو : ٤٤٩) ومدينة قُلمرية (سنة ٤٥٦ هـ) ونكب أهلها نكبة مروّعة على يد فرناندو ، وحاكمها سسندو (يسمّيه العرب ششند) وكان مُستعرباً (من نصارى الأندلس) خدم القشتاليين وأسرف في التنكيل والقتل والتشريد والسبي (راجع مثلاً : عصر الطوائف لمحمد عبد الله عنان : ٨٤ ـ ٨٦) ثم حكم المنصور (سنة ٤٦١ ـ ٤٦٤ هـ) ثم عمر الملقب بالمتوكل (سنة ٤٦٤ ـ ٤٨٧ هـ) . (راجع هذه التواريخ للمقارنة في معجم زامبادر ١ : ٨٩) .

وسقطت طليطلة سنة ٤٧٨ هـ وابنُ السِّيد البَطَلْيَوْسِيّ في نَحو الرابعة والثلاثين من عمره وكان نصر الزلاّقة سنة ٤٧٩ هـ وهو ابن خمس وثلاثين سنة .

فهو إذن شَهِدَ مدّةَ دُول الطوائف في عِزّ اصطراعها : وكانت دولةُ بني الأفطس مهاجِمَةً حيناً ومهاجَمةً حيناً آخر وكانت مطامحهم ومطامعهم لا تتجاوز أن ينال أحدهم من أراضي صاحبه ومناطق نفوذه : يتشدّد بعضهم على بعض ويستخذون جميعاً أمام ملوك قشتالة وغيرها من الدول المعادية الُمحاربة .

ولا شكّ في أن هذه الظروف القاسية كانت في جملة الحوافز التي حفزت ابن السيد على مُغادرة بَطَلْيَوْس إلى أكثر من مدينة وبلد : ونقرأ في شعره قوله من قصيدة :

فَسِرْنا وما نلوي على متعَذّرٍ   إذا وَطَنٌ أقْصاكَ آوتْكَ أوطانُ !

على أنّ « ملوك » الطوائف وأمراءهم ومتغلّبيهم ، وإن اتّسم كثير منهم بالْجَهْل أو البُعد عن الثقافة : قرّبوا العلماء والأُدَباء : إمّا معرفة بحقوقهم ومكانتهم ، وإمّا مباهاةً ورغبة في استكمال هالة السلطة والإدارة . على أن

تقريب العلماء والأدباء والشعراء لم يكن حكماً عاماً دائماً ، ولكنه غالبٌ . ويختلف معنى (التقريب) أو (العناية) بين مكان وآخر ، وحاكم وآخر من حكام ذلك الزَّمان .

● وفي شيوخه من أهل بطليوس : أبو بكر عاصم بن أيّوب البَطليوسي أحد أئمة اللغة والأدب روى علماً غزيراً ، وألف كتباً نافعة وصل إلينا بعضها ؛ وهو ممن عني بشرح الأشعار الستّة . وهو توفي سنة ٤٩٤ هـ .

وفيهم : أبو الحسن علي بن أحمد بن حمدون المعروف بابن اللّطينة ، وكان من القراء المشهورين ، وكانت وفاته سنة ٤٦٦ هـ في بطليوس .

وفي شيوخه أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدّارمي التّميمي ، وهو مشرقيٌّ دخَل المغرب والأندلس ، وتوفي في طُليطلة سنة ٥٠٥ هـ . وكان أبو الفضل لقي أبا العلاء المعري وروى عنه ونقل معه كتبه ، وكان من أهل الأدب والعلم .

وفيهم أبو القاسم عبد الدائم بن مرزوق بن خير القيرواني من أئمة اللغة والنحو والأدب وكانت له عناية بكتب أبي العلاء المعرّي ، وكانت وفاته بطليطلة سنة ٤٧٢ هـ .

وفيهم أبو الحسين بن محمد بن أحمد الغسّاني الْجَيّاني من العلماء الأدباء ، وأحد علماء الحديث ، (توفّي سنة ٤٩٨ هـ) .

ولا شكّ في تلقيه عن غير هؤلاء ، وروايته عن عدد كبير من رجال عصره . ومعلوم أن القرن الخامس الهجري كان عصر ازدهار فكري وحضاري ، وزمان قطف ثمرات طيبة من زرع الحضارة الأندلسيّة أيام الدولة الأُمويّة . وأفاد ابن السّيد أيضاً من التّراث الأندلسي الغزير في الفنون المختلفة إضافة إلى التراث المشرقي الذي استمرّت العناية بروايته جيلاً بعد جيل .